﴿المحاضرة - 08 - الثامنة﴾

الأدب الجزائري القديم في عهد الدولة المرابطية

عناصر الدرس

1- تاريخ الدولة المرابطية
2- المرابطون في الجزائر
3- الأدب والأدباء في العهد المرابطي
4- التصنيف اللغوي والأدبي في العهد المرابطي
5- إشكال: لماذا لم يوجد أدب جزائري في ظل دولة المرابطين؟
6- الإجابة عن الإشكال
7- نص مختار لجزائري عاصر الدولة المرابطية

1- تاريخ الدولة المرابطية:

المرابطون (448-541هـ = 1056-1147م) تعود الدولة المرابطية في أصلها إلى حركة إصلاح ديني ظهرت قبل منتصف القرن الخامس الهجري (منتصف القرن الحادي عشر الميلادي) في صحراء جنوب المغرب الأقصى بمبادرة من يحيى بن إبراهيم الجدالي شيخ قبيلة جدالة الصنهاجية. وقد تزعم الحركة عبدالله بن ياسين الجزولي وسمى أنصاره المرابطين .ترك ابن ياسين قيادة المرابطين العسكرية ليحيى بن عمر اللمتوني. ولما توفي يحيى سنة 448هـ (1056م) خلفه أخوه أبوبكر وابن عمه يوسف بن تاشفين. وعندما توفي ابن ياسين عام 451هـ (1059م) تجنب أبوبكر وابن تاشفين الخلاف بأن اتجه الأول نحو الجنوب فنشر الإسلام هناك، وواصل ابن تاشفين سيره شمالاً. بنى ابن تاشفين مدينة مراكش عام 454هـ (1062م). وفي عهد يوسف بن تاشفين (480 - 500هـ) تم الاستيلاء على باقي المغرب الأقصى والمغرب الأوسط إلى مشارف إمارة بني حماد الزيريين. وعبر ابن تاشفين إلى الأندلس عندما استنجد به بعض أمرائها، فانتصر على ألفونسو السادس في معركة الزلاقة سنة 479هـ، 1086م، ثم عاد إليها في 481هـ و483هـ فأزاح ملوك الطوائف نتيجة تواصل انقسامهم، وترددهم في الولاء للمرابطين، واستمرار الخطر النصراني، وألحق الأندلس بدولة المرابطين .لكن سلطة المرابطين ما لبثت أن اختلت في عهد ابنه علي (500-537هـ) بكل من المغرب والأندلس بسبب الانتفاضات المحلية والهزائم على أيدي النصارى، وبدأ أمر الموحدين بالظهور. وقد تلا الأمير علي بن يوسف ثلاثة أمراء من المرابطين واصلوا الصراع ضد الموحدين، حتى استولى هؤلاء على العاصمة مراكش، فقتلوا آخر الأمراء المرابطين إسحاق بن علي بن يوسف، وقضوا على دولة المرابطين سنة 541هـ،1147م[1].

2- المرابطون في الجزائر:

"في سنة 472هـ بعث يوسف بن تاشفين قائده مزدلي لغزو تلمسان، في عشرين ألفا من المرابطين. فعاث في نواحيها. ثم عاد إلى أميره يوسف بمراكش. وفي سنة 474هـ نهض يوسف نفسه اليها. وعسكر إليها. وأسس بمعسكره مدينة سماها تاقرارت. ومعناها المحلة. وقد أصبحت من بعد مع تلمسان مدينة واحدة واتخذها المرابطون عاصمة مملكتهم

[1] - ينظر: قرص الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق، مادة: الدولة المرابطية.

بالوطن الجزائري. وأنزلوا الجند بتاقرارت. وفتح يوسف في نهضته هذه تلمسان من أيدي بني يعلي الخزريين ثم وهران وتنس ووانشريس وأعمال شلف. وبلغ مدينة الجزائر"[1].

3- الأدب والأدباء في العهد المرابطي:

اتهمت الدولة المرابطية بأنها كانت دولة الفقهاء ولم تكن دولة الأدباء، ولعل السبب الرئيس لذلك أن عبد الله بن ياسين المرابطي زعيمها "كانت نزعته إلى علم الفقه والدين أقوى منها إلى أيِّ علم آخر.. فغلب عليه هذا الميل على الدولة، ومن ثَمّ كان تقديمها للفقهاء، واحتضانها لهم دون عداهم من أرباب المعارف المتنوعة"[2]. وقد أكد ذلك ابن الخطيب في منظومته؛ بقوله[3] في عبد الله بن ياسين[4]:

مكرمـــــــاً للفقهـــــــا الجلـــــــة موفيـــــا فـــــيهم حقـــــوق الملـــــة

ويعطف عبد الله كنون بقوله أيضا: ولم يكن هذا يعني اضطهادا للأدب والأدباء، بل يعني أنّ الفقهاء كانوا هم أهل السلطة والنفوذ. ولا أدل على ذلك حين صارت الأندلس تابعة لهم نبغ منهم كثير في الأدب والشعر، ذكرهم أصحاب التراجم، كابن بسام في ذخيرته[5]. ولعل ما يؤكد رؤية عبد الله كنون هذه، ويعطيها بعدا موضوعيا، تلك التصنيفات التي ظهرت في العهد، والتي سنشير إلى بعضها فيما هو آت.

4- التصنيف اللغوي والأدبي في العهد المرابطي:

وكان عصر المرابطين عصر المصنفات الكبرى، والموسوعات العظمى، "ومن أنواع التصنيف التي ظهرت في العصر المرابطي المصنفات التي لم يخصصها أصحابها لجانب أدبي أو لغوي، وإنما تناولوا فيها الجانبين معاً، وأضافوا بعض الموضوعات الثقافية

---

[1] - مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، 282، 283.

[2] - عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط3، 1961، ج1، ص68.

[3] - لسان الدين ابن الخطيب، رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية بحاضرة تونس المحمية، تونس، دط، 1316هـ، ص51.

[4] - "عبد الله بن ياسِين (000 - 451 هـ = 000 - 1059 م) عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولي المصمودي: الزعيم الأول للمرابطين، وجامع شملهم، وصاحب الدعوة الإصلاحية فيهم. كان من طلبة العلم في دار أنشئت بالسوس وسميت " دار المرابطين " و " أشار شيخ القيروان أبوعمران الفاسي، على منشئ تلك الدار " وكاك ابن زلون اللمطي " بإرسال من يذهب مع " يحيى بن إبراهيم الكدالي الصنهاجي " الى صنهاجة، لتفقيهها وتعليمها أمور دينها، فوقع اختيار " وكاك " على ابن ياسين، فنزل فيها وأقبلت عليه. ورأى البدع فاشية، فاشتد في وعظها واقامة حدود الشرع فيها، فأعرضب عنه، فاعتزلها مع بضعة أشخاص في جزيرة قريبة منها في " النيجر " ولحق به جماعة، ثم آخرون، حتى بلغ من عنده زهاء الألف، فسماهم " المرابطين "، وأخضع بهم قبائل صنهاجة كلها. ثم خرج من الصحراء (سنة 445 هـ ودعاه فقهاء من سجلماسة وسوس، بينهم شيخه " وكاك " فافتتح بلاد درعة وسجلماسة، واستولى على " تارودانت " قاعدة سوس، وفتح بلاد المصامدة حربا. وامتد سلطانه من نواحي السنغال الى سجلماسة، ومن درعة الى أغمات الى حاحة والشياظمة وتقدم الى قبائل " برغواطة " وكانت لها دولة على الشاطئ الأطلسي بين الدار البيضاء والسويرة، فاستولى على بلادها بعد وقائع أصيب فيها بجراح كانت سبب وفاته. ودفن في موضع يسمى " كريفلة " في قبيلة " زعير " غير بعيدة عن الرباط. وأقيمت على قبره قبة معروفة الى اليوم.قال صاحب " الاغتباط ": دوخ المغرب إلى أن صار يدين بتعاليم الإسلام بعد أن كاد يتقلص منه، وقال صاحب الأنيس المطرب: " قتل في سنة 451 الفقيه أبو محمد، عب الله بن ياسين الجزولي، مهدي لمتونة. قتله مجوس برغواطة فمات شهيدا " وقال صاحب الجامعة اليوسفية بمراكش: " أفاد ابن السماك في حلله، إن عبد الله بن ياسين لم يكن قد سمع من شيخه وجّاج تعاليم القيروان وحدها، بل كان صلة بين المغرب الأقصى وجزيرة الأندلس حيث قضى فيها 7 سنوات يتطلب المعارف. إذا فنضجه الفكري كان نتيجة ثقافة عالية في الأندلس"
- الزركلي خير الدين، الأعلام، ج4، ص144.

[5] - عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج1، ص73.

المتنوعة، وهي تشير إلى الثقافة الموسوعية التي يتصف بها أصحاب تلك المصنفات. ومن المصنفات التي ظهرت في عصر المرابطين الشروح اللغوية الأدبية، كشروح كتب الأمثال، وشروح كتب الأمالي، وشروح الكتب اللغوية الأدبية، وشروح الدواوين والمجموعات والقصائد الشعرية، وشروح الحماسات، وشروح المعلقات"[1].

5- الإشكال: لماذا لا نجد مساهمة أدبية للجزائريين في ظل الدولة المرابطية؟

6- الإجابة: لم تتهيأ العوامل الكافية كي نجد أدبا وأدباء جزائريين في ظل الدولة المرابطية. وهذه جملة من الأسباب العامة والخاصة التي أدت إلى تلك النتيجة السلبية.

- ✓ كانت دولة المرابطين دولة فقهاء، ولم تكن دولة أدباء. فلم تشجع الآداب، ولم تفتح للأدباء الأبواب.
- ✓ اعتبر الجزائريون دولة المرابطين دولة غاصبة محتلة، بعدما اجتاحوا أراضيهم، واستولوا على أملاكهم في تلمسان، وتنس، ووهران، والونشريس، والشلف، والجزائر. لقد كان احتكاكا فعليا وواسعا، ولكنه كان قهريا. ولا أدل على ذلك لم يشد أديب جزائري واحد الرحال نحو البلاط المرابطي المجاور في تاقرارت ولا البعيد في مراكش، متقربا بالمدح، أو مشاركا في الحركة الثقافية عندهم بأيِّ صفة كانت..
- ✓ عاصرت الدولة المرابطية دولتين عُظْميَيْن: (الصنهاجية والحمادية)، اللتين سبقتاها في التأسيس، فاستأثرت القيروان والقلعة وبجاية بالطلبة والمعلمين والشعراء والكتاب وأهل العلم عامة، وانصرفوا إليها راضين مرضيين. بعدما وجدوا التشجيع والأمان والعيش الكريم. وكان من البديهي أن ينصرفوا عن المرابطين الذين واجهوهم بالصد.
- ✓ ومجمل القول لم تعدم الجزائر أدبا ولا أدباء في العهد المرابطي، بل كانوا موجودين بالكثرة والجودة أيضا.. موجودون في الأندلس، وصقلية، وفي القلعة، وبجاية، والقيروان، وغيرها من الحواضر الإسلامية المستقرة. ولكنهم لم يظهروا في ظل الدولة المرابطية لجملة الأسباب المذكورة. وما ذكرناه من أدب وأدباء في الدولتين الصنهاجية والحمادية خير شاهد على ذلك، ويعطي صورة مقاربة بل مشابهة للأدب الجزائري في ظل الدولة المرابطية، لو قُدِّر له الوجود، ولكنه مع الأسف لم يوجد.
- ✓ لم يتطرق محمد الطمار في كتابه تاريخ الأدب الجزائري إلى الدولة المرابطية من الناحية الأدبية، لعلمه أنه لن يجد شيئا.

7- نص مختار لجزائري عاصر الدولة المرابطية:

أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الورقلاني: (ت471هـ-1078م) من العلماء الذين عاصروا دولة المرابطين: "أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر الورقلاني، وقد كان رجلا فاضلا طالبا لعلوم المذهب الأباضي، مقتفيا سيرة الأوائل من رجاله، وكان الطلبة يقصدونه من كل حدب وصوب للارتواء من علومه ومعارفه. خلف لنا الورقلاني كتابا عنوانه سير الأئمة وأخبارهم وقد نشر هذا الكتاب في الجزائر سنة 1979م بتحقيق وتعليق إسماعيل العربي"[2]. وهو في حقيقته فقيه ومؤرخ، ولكن له أسلوبا تغلب عليه

---

[1] - فاتن كوكة، التصنيف اللغوي والأدبي في عصري المرابطين والموحدين 484-670، وزارة الثقافة الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، 2012م، ص217-220.

[2] - شاوش محمد بن رمضان وآخر، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ج1، ص85.

الأدبية والقصصية، وهو يروق السامعين، ويشوق القارئين. ففي ترجمته المختارة هذه للإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم تجد ذلك بعينه، حيث يسرد علينا محاولة اغتياله الفاشلة..

قال أبو زكرياء الورقلاني[1]: **م امر محبطة**: "وبلغنا أنَّ نفرا منهم اجتمعوا على غدر الإمام رضي الله عنه، فأداروا أمرهم بينهم فقالوا كيف لنا بالوصول إلى قتله؟ فلم يتجه لهم ذلك. ثم أن رجلا منهم قال لهم: هل لكم في رأي؟ أن تأخذوا تابوتا وتجعلوني فيه وتمضون بالتابوت إليه كأنكم مختمون عليه وتمتنعوا من الاتفاق عليه وأن يجعل في يد أحدكم دون غيره، فإن صرتم إلى ذلك فقولوا له لا نرضى أن نضعه عند أحد سواك، فاتفق رأيهم على ذلك.

وعمدوا إلى التابوت فأدخلوا (الرجل) فيه ومعه سيفه وكان التابوت مغلقا من داخل، وأقبلوا بالتابوت إلى الإمام عبد الوهاب ﷺ على اتفاقهم الأول وهم يتنازعون عليه حتى أظهروا من أنفسهم أنهم يتجاسرون ويقع الشر بينهم. فلما وصلوا إلى الإمام تكلم متكلم فقال: يا أمير المؤمنين أفصل بين هؤلاء القوم وانزع هذا التابوت من أيديهم جميعا حتى تصلح بينهم ويزول الشر الذي بينهم، فقال القوم بأجمعهم صدق لك يا أمير المؤمنين ولسنا نثق بأحد أن نضعه عنده إلا أنت فضعه لنا عندك حتى نتفق.

فلما رأى الإمام منهم ذلك وخاف أن يقع الشر بينهم قال لهم: احملوا تابوتكم إلى الموضع الذي آمركم أن تضعوه فيه. قال: فلما حملوه ونظر إليهم الإمام مثقلين بحمل التابوت استرابهم، ثم أن الإمام عبد الوهاب تأمل التابوت فوجده مقفلا من داخله فكان ذلك مما زاده ريبة فيهم وظن أنهم أرادوا به المكر والغدر. وقد كانوا اشترطوا عليه ألا يضعه إلا في بيت ينام فيه فلما وضعوه خرجوا من عنده مستبشرين فرحين وظنوا أنهم يظفرون بحاجتهم، فخيبهم الله وكانوا أهل مكر وخداع وخبث النفوس.

وبلغنا أنهم اتفقوا مع صاحبهم أنه إذا قتل الإمام أن يؤذن لصلاة الصبح عند طلوع الفجر فإذا سمعوا أذانه وهم يعرفون صوته يبادرون إلى دار الإمام عبد الوهاب ﷺ وإن لم يؤذن عرفوا بأنّ صاحبهم لم يظفر بحاجتهم. فلما جاء الليل اشتغل الإمام ﷺ في صلاته، فلما فرغ منها وفرغ من حوائج أهل بيته وكانت عادته إذا فرغ منها أن يأخذ كتابا فيقرأ فيه. فلما كانت تلك الليلة عمد الإمام ﷺ إلى زق منفوخ فوضعه على فراشه فوضع عليه ملحفة بيضاء، فلما قضى حاجته من قراءة كتابه وجاء الوقت الذي يرقد فيه أخذ المصباح فأوقده وألحف عليه غطاء بسترة، وتنحى إلى جانب البيت وأقبل على الصلاة حيث لا يسمع به ولا يراه من كان في التابوت.

فلما هدأ صوت الإمام عن صاحب التابوت وظن أن الإمام قد رقد فتح التابوت وخرج منه، فنظر في البيت يمينا وشمالا فلو ير شيئا إلا بياضا من ناحية البيت فظن أنه الإمام فقصده وبيده السيف مستلا والإمام ﷺ يبصره، فلما وصل إلى فراش الإمام ضرب بالسيف على الزق فظن أنه قتل الإمام وإنما أصاب الزق منفوخا. فلما سمع الإمام ضربة

---

[1] أبو زكريا يحي بن أبي بكر الورجلانى، سير الأئمة وأخبارهم ، تحقيق إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر،1979م، ص60-62.

السيف نزع الغطاء عن المصباح واستضاء البيت فقصده وضربه الإمام بالسيف فقده نصفين فأخذه ولفه في ثيابه ورده في تابوته.

فبات القوم متململين ينتظرون متى تكون الصيحة على الإمام عبد الوهاب ﷺ أو يؤذن صاحبهم. فلما كان بالغد اجتمعوا فتساءلوا فيما بينهم فقال بعضهم لبعض: هل سمعتم عن الإمام أو عن صاحبكم شيئا؟ فقالو: لا. فقال بعضهم لبعض: امضوا بنا لنأخذ تابوتنا ونقول له قد اتفقنا عليه واصطلحنا قال فأقبلوا إلى الإمام رضي الله عنه وقالوا له أعطنا تابوتنا فقد اتفقنا عليه. قال، فقال لهم الإمام امضوا إلى الموضع الذي وضعتم فيه تابوتكم فخذوه فمضوا معه حتى دخلوا البيت فوجدوا تابوتهم في الموضع الذي وضعوه فيه فحملوه فلما وصلوا إلى مأمنهم فتحوا تابوتهم فوجدوا صاحبهم قتيلا مقدودا نصفين فخيب الله سعيهم وأظهر بغيهم وأخلف ظنهم فخرجوا من المدينة خوفا من صنيعهم من المسلمين".